أعقاب السكاير

قصة بقلم موريس كامل

جاء الدنيا من غير اذن الناس ، وعاش في دوار ، وحيداً مع امه .. مع قلقه ، يكر على ماضيه بعناد يحاول ان يتذكر وجه أبيه فيعيا ككل «النفايات» التي خرجت الى الدنيا سراً ، فتنكر لها اصحابها والناس وانكرت نفسها تعيش في الظلام .

كان ميخائيل يعض شفتيه حتى الدم ، حين يعترضه في الشارع انسان لا ككل الناس يسأله بخبث عن اسم ابيه ، ويسرع في مشيه متشنج الاصابع يهرب من ضحكة شامتة تطن في اذنيه طنيناً مزعجاً ، كأن اسم ابيه ، فيما لو كان له أب ، يخلصه من حياة الذل والبؤس التي يتمرغ فيها كثيرون غيره يعرفون « اسماء » اباءهم .

شغل بالسؤال ، على مر الايام . نسي نفسه وامه وراح يفكر بأبيه تفكيراً متصلاً في الليالي الطويلة ، تلفه عتمة كثيفة في غرفته الضيقة الضائعة في حي قذر من احياء العاصمة . كانت امه تنام وسرها في اعمق زاوية من الغرفة ، تسعل بين الفينة والفينة سعالاً حاداً يقطع النفس ، ثم تتوجه اليه تكلمه بصوت تخنقه البحة : « ميخائيل يا ابني ، آن لك ان تنام » ، وتتنهد ، فيرفع اللحاف عن وجهه ليسألها بدوره ، دون ان ينتظر جواباً : « الم تغفي بعد ؟ » ويغرق في سويدائه ليفيق منها ، بعد حين ، على بكاء متقطع يصدر من الزاوية — من « قفة » الحزن والهم .

★

اعوام تمر ، وميخائيل يعيش في حقده وقلقه . يذهب ، صباحاً ، الى عمله في مصنع النسيج ، في الطرف الشمالي من المدينة ويعود ، عصراً ، الى البيت مكفهر الوجه ضيق الصدر ، يفتش عن مخرج لعذابه . ومثله ابداً وجد نفسه في أصيل يوم من خريف ١٩٣٩ ، في طريق العودة الى البيت ، يمشي مهدوداً حذراً ، ينظر بضيق الى حركة الناس ، تدفعه حاجة غامضة الى سلوك طريق ضيقة خلف غرفته تقع فيها خمارة يؤمها رجال الحي مساء .

لم يكن قد تخطى باب تلك الخمارة يوماً ؛ لكنه في ذلك الاصيل وقف امام واجهتها كالابله ؛ ينظر الى داخلها بعينين كبيرتين لا يفقه سر قوة مجهولة تسمره في مكانه كشيء عادم القيمة لا ارادة له . حاول ان يبتعد ، لكن رجليه تحركتا من الوجهة المعاكسة ، ووجد نفسه في داخل الخمارة ، امام الدكة ، يطلب بصوت غريب عنه : كأس عرق .

خرجت الكلمتان من فيه ثقيلتين كالرصاص : خيل له معها ان زبائن الخانة سمعوا صدى وقعها على صفيح الدكة . ادار عينيه في جميع الزوايا يستطلع الوجوه حقيقة الامر فطالعته عيون حمراء كالدم تنظر اليه نظرتها الى حيوان غريب .

اضطرب على كرسيه ، ولم يلحظ في اضطرابه وجود حنا بائع الخضار في الزاوية خلفه . رآه ، فجأة ، منتصباً على قدمين مترنحتين يدني من وجهه وجهاً شوه السكر تقاطيعه ، يلح عليه بصوت كريه أن يقوده الى امه : مريانة .

دارت به الارض . احس بالنار تلسع أذنيه . احس شيئاً ثقيلاً كالحجر يعصر قلبه . وبحقد ارتفعت يده في الهواء لحظة ثم هوت عنيفة كالمطرقة على وجه حنا فانهار دفعة واحدة ، مرسلا أنة اقشعر لها بدنه

راح ينظر اليه بعينين ضائعتين ، لا يستطيع ان يفكر ، كأنه افرغ من كل حس . تسمرت قدماه في الارض وسال العرق في ظهره بارداً . كان الصمت عميقاً يترك في خلايا المخ نتيئاً يبلد العصب ، هيمن لحظة استولت فيها الدهشة على جميع من في الخمارة .

حار ميخائيل في امره . يجهد خطا خطوة واحدة يطلب الشارع ، لكن همهمة عميقة ترددت مبهمة غامضة ثم تجلت قوية واضحة تتحلها شتائم قذرة ، واحاطت به اجساد مترنحة تمسك بقميصه . وكلمح البصر هوت القبضات على وجهه ، على عنقه ، على صدره ، تضربه دون شفقة ، فضت عيناه من ضربة اصابت جبهته ، وارتسمت على وجهه تكشيرة ألم . شعر بلذع الكلمات عنيفاً يسلق جسده سلقاً ، وانسدلت غشاوة على بصره كاد يختنق بسائل مالح ملأ فمه وخياشيمه ، لكن برودة كالثلج تمشت في اطرافه وخديه ، عقبها خدر عميق خف معه ألمه ، غاب بعده عن وعيه .

★

عاش ميخائيل ، بعد هذا التاريخ ، اشهراً ظل يذكر في غضونها كيف غادر البيت في الفجر العميق لا يلوي على شيء ، تملأ نفسه رغبة في الهرب بعيداً الى اطراف الدنيا . خرج يجر رجليه جراً ، يمشي في الشارع الهادىء حزيناً تعباً تملأ جسمه بقع زرقاء كبيرة ورفع يديه يضغط صدغيه ضغطاً عنيفاً عله يضع حداً لدوي مزعج ملأ رأسه . كانت عيناه تنظران بغير اكتراث الى عمال التنظيفات في اثوابهم المرقعة يغسلون ارض الشارع ودماغه يفكر تفكيراً عميقاً بأمر طالما شغله في الفترة الاخيرة من حياته . فقد ، على مر الدقائق كل شعور بالألم وتركز تفكيره على نقطة بالذات ، ارتسمت امام عينيه على شكل اشارة استفهام كبيرة تحيط بحياته ، كل حياته تسمها بطابع الذل والحقارة .

رويدا ، رويدا ، تقلصت الاشياء تقلصاً عجيبا وغابت خلف غشاوة سميكة ووجد نفسه في محطة سكة الحديد ، بعيدا عن البيت .. عن أمه .

في صالة الانتظار ، امام شباك التذاكر ، سمع رجلا يطلب تذكرة الى حلب ففعل مثله . دفع ما معه : ليرات قليلة جمعها قرشا قرشا ، ومشى ، تدفعه جماهير المسافرين الى عربة الدرجة الثالثة يأخذ مكانه بين عجوز تملأ البثور وجهها ، وبدوية تفوح رائحة نتن من ثيابها القذرة .

كيف عاش ميخائيل ايامه الاولى في حلب ؟ ماذا فعل ؟ اين نام ؟

يعرف انه لم يعشها وحده .. لم يفعل شيئاً بنفسه . نزل من العربة يرتجف من الجوع والبرد ووقف منفردا ينظر الى المسافرين يغادرون المحطة بسرعة . كان في حيرة من أمره يفكر بحل عندما اقترب منه رجل كهل رث الثياب تشع عيناه ببريق غريب وسأله عود كبريت .

قدم له علبته وراح ينظر اليه يشعل عقب سيكارة ، فابتسم الغريب وقال له ببساطة : « اني ادخن اعقاب السكاير » واضاف : « اسمي هرشو » ومد يده بعقب سيكارة أخذه ميخائيل وأشعله وراح يسحب الدخان بشره .

كان اول عقب سيكارة دخنه في حياته ، ربطته توا بصاحبه صداقة ما عرف انها ستنقطع يوما بشكل غريب . عرف « هرشو » قصته في دقائق ، قاده بعدها الى مطعم حقير في زقاق ضيق يقدم له صحنا من الفول ، اتبعه بعقب سيكارة . كان يتصرف معه تصرف انسان واثق من نفسه لا يعرف هماً من هموم الدنيا : وما لبث ان مشى به ، في الازقة الضيقة ، حتى بلغا بيتا مهدما تقوم في زاوية منه ظلة من تنك ، كوم تحتها شبه فراش .

★

عاش ميخائيل مع «هرشو» يدوران في الازقة كالكلاب الجائعة ، يجمعان اعقاب السكاير ويأويان ليلا الى الظلة يتحدثان او يقرأ ميخائيل في كتب عتيقة ، كان « هرشو » يحملها له لا يدري من أين ، فيفتح عينيه ويصغي ملء جوارحه ، ثم يهز رأسه ويبتسم ساخراً يقول :

— لا تصدق شيئا . ليس في الدنيا انسان يعرف الحياة . وانت اين تعلمت ؟

ثم ينظر الى الارض وعلى جبينه تجاعيد يغيب في عالم بعيد .

في آخر ليلة قضاها ميخائيل مع « هرشو » قص عليه هذا الاخير مرحلة من مراحل حياته — اسودها كما قال — ضغط يديه وحدق الى وجهه فاغر العينين :

— البؤس ، يا بني ، خطر على الانسان . انت ، في المرة الاولى ضربت . ضربت جنا . في المستقبل قد تقتل مثلي انا ، دون ان تكون لك رغبة في القتل ، أتدري لماذا قتلت ؟ كنت شقيا جائعا لا اجد رغيفاً . ثقل علي شقائي ورأيتني ارفع المجرفة اهوي بها على رأس زوجتي ، في دقيقة جنون بلل فيها المطر النافذ من شقوق السقف ، فراشنا الوحيد ... كأنها هي المسؤولة ...

قام « هرشو » يبتعد عن ميخائيل . ابتعد اكثر من اللزوم ، رحل تلك الليلة ولم يعد ، فانتظره ميخائيل ، اياما ، ثم قصد مصنعا من مصانع النسيج يعمل فيه .

كان يقضي نهاره بين جدران المصنع يفتك برئتيه غبار القطن ، ويدور ليلا على الخمارات يشرب العرق وحيدا ، او بصحبة كوستا رئيس فرع الميكانيك في المصنع حين يكون هذا الاخير على خلاف مع صديقة له تعمل في حانة من حانات سوق الجميلية .

عاش شهورا عيشة انسان شبع من حياته . عاش عيشة انسان ينتحر . وفي مساء ممطر شاعت فيه السويداء في نفسه توجه الى الحانة التي تعمل فيها صديقة كوستا . وجد صديقه جالسا معها قرب دائرة الرقص ، فجلس الى طاولتهما وطلب ، على غير عادته كوبا من البيرة .

شرب كوستا تلك الليلة بشره . شرب حتى الضياع وراح يحدث ميخائيل عن اليونان .. عن حياته الماضية . قص عليه خبر فتاة قروية رآها على الصخور تنظر الى البحر فحملها عنوة ومددها على الرمل ..

لم يتركه ميخائيل يكمل حديثا يطعنه في صدره يذكره بماضي أمه .. بعذابه . انقض عليه كالمجنون وراحت يده تمزق وجهه المجدور بقسوة . كان يضربه باعصابه وقلبه ، على اسنانه ، على أنفه ، على صدره . زاغ بصره واستحال كوستا بين يديه رجلا آخر — كائنا يشبه ، قهراً ، رجلا لوث امه وتركه هو نفاية في الدنيا — عقبا من اعقاب السكاير لا اسم له . وبحقد اطبق اصابعه على عنقه يشد ويشد فاسرع الخدم وانقذوه من بين يديه في لحظة رأى فيها الموت بعينيه .

أفاق ميخائيل يلهث . ادرك في لحظة انه كاد يقتل مثل هرشو : كاد يصير مجرما ، فتصبب العرق من جبينه العريض ونظر حوله بذهول . كانت صديقة كوستا ساهمة تنظر الى الواجهة والمطر يتساقط على زجاجها دون ان تمد يداً الى كوبها ، فلما هدأت السماء قامت الى الباب تمشي على مهل . ومن على العتبة نظرت الى ميخائيل تدعوه الى اللحاق بها فمشى باكتئاب ورافقها الى غرفتها الصغيرة . لم يسألها شيئاً ولم تخرج بدورها عن الصمت . كانت تنظر اليه بحنان عميق ، فلما تمدد على سريرها تكومت بين يديه وضغطت صدره تغيب فيه ... وكطفل صغير ارتعش ميخائيل وكرت من عينيه دمعة فرح . دمعة كانت الاولى في حياته .

عرفت هذا الشق من حياة ميخائيل ، ايام الحرب الاخيرة ، عهدا قامتي في حلب ، قصتها عليّ امرأة سمراء تبرق عيناها كالماس ، كانت تعمل في حانة من حانات سوق الجميلية ، فلما سألتها عن مصير ميخائيل رسمت بيدها حركة في الهواء واجابت مثل من يفيق من كابوس مزعج :

— ميخائيل ؟! مات .. دهسته سيارة في هذا الشارع بالذات بينما كان يشعل سيكارة .

ثم اضافت بغصة : قتلته السيكارة .

موريس كامل